الشهيد إيليان الحمصي[1]

(١)

❖✝❖

أسرته ومُربِّيته الصالحة:

كان والداه وثنيَّيْن، وبينما كان والده الشريف كنداكيوس – الذي كان من أسرة القياصرة – مليئًا بالعجرفة وقسوة القلب، كانت والدته "إخشسترا"[2] حسنة التربية وعلى علمٍ وافر وأدبٍ جمّ، وقد احتملت كثيرًا جدًا من طباع زوجها الشرسة وميوله للسُّكْر والعربدة مع أصدقائه، وعدم اهتمامه بوجودها على الإطلاق، وذلك بطول أناةٍ وصبر نادرين، ولكنها تعزَّت بولادة طفلٍ جميل، هذا الذي رفض أبوه أن يُسمِّيه سوى باسم "يوليان" ليُشير إلى صلته بالقياصرة.

استعانت إخشسترا على تربية طفلها بوصيفةٍ اسمها "مطرونة" بسبب وداعتها وعطفها على الصغار وأمانتها وإخلاصها، هذه الصفات التي كانت تُقابلها رقَّة معاملة إخشسترا وعطفها على مَنْ هم دونها. فما كانت تجرح أحاسيسها بكلمة. فكانت هذه التابعة تعزية كبيرة لسيِّدتها كلما رأت في زوجها ما يُحزنها، كما أنها لم تُشعِرها بأقل تعب في تربية الطفل حتى بلغ وقت فطامه.

ولكن إخشسترا كثيرًا ما كانت ترى مطرونة تعمل على سرير الطفل قبل نعاسه إشارةً لم تُدرك لها معنى، وكأنها تُسلِّمه في نومه لقوَّةٍ أخرى غير منظورة، فخافت من أن تكون ساحرة! فلما سألتها مرةً عن معنى هذه الإشارة: هل هي رُقية؟ وهل هي ساحرة؟ قالت لها: "ثقي، يا مولاتي، أنني أعمل كل ما هو خير لابنك المحبوب، وأنا لا أعرف السِّحر، ولكنني أتضرَّع إلى الإله الذي يعطف على الأطفال ليكون حارسًا لطفلكِ".

- "ومَنْ هو هذا الإله؟ أَلعلَّه أوزيريس أم فشنو الهندي أم موزد الفارسي أم الموجود

---

(١) نسبة إلى حمص إحدى كبرى مدن سوريا، وهذه السِّيرة مُلخَّصة عن كتاب: "إنارة الأذهان في ترجمة الشهيد الحمصي إيليان"، تأليف: الخوري عيسى أسعد، وطُبع عام ١٩٢٨م.

(٢) استدلَّ البعض من هذا الاسم على أنها من أصل يوناني، فاسمها مكوَّن من كلمتين: "ΙΧΘΥΣ إيخثيس" ومعناها "سمكة"، و"ἀστέρος أستيروس" ومعناها "نجم"، أي "سمكة النجم".

الأعظم الذي وصفه أفلاطون وأرسطو"؟

- "كلَّا، يا سيِّدتي، فكلُّ هؤلاء هم مخلوقات هذا الإله العظيم. لقد رُسِمَتْ فيكِ صورته، وقد حصلتِ على حظٍّ وافرٍ من الأخلاق التي يطلبها من أتباعه، وداعةً وحُلمًا وصَفْحًا، وهو ليس بعيدًا منكِ وإن كنتِ تجهلين اسمه، بل إنكِ ستكونين من أقرب الناس إليه"!
- "بربِّكِ قولي لي، يا مطرونة، ما هو اسمه"؟
- "هو، يا سيِّدتي، الكلمة الأزليَّة الذي سُمِّيَ على الأرض "يسوع الناصري""".
- "عجبًا! أأنتِ، إذن، مسيحية يا مطرونة"؟ (قالت ذلك وقد تغيَّر منظر وجهها فجأةً)!
- "أجل، يا مولاتي، ولكنني لا أكره أحدًا، بل أخدم أيَّ أحدٍ مهما كان مُعتقده".
- "لكِ أن تعتقدي ما تشاءين، يا مطرونة، ولعلِّي أسمع منكِ شيئًا عن إيمانكِ هذا فيما بعد".

تأثَّرت إخشسترا جدًّا واندهشت، لأنَّ أكثر المسيحيين الذين عرفتهم كانت أخلاقهم وطهارتهم ونقاوة حياتهم، تنفي ادِّعاء الوثنيين عليهم أنهم يرتكبون الدنايا في خلواتهم. وها هي مطرونة **مثالٌ واضحٌ أمامها،** كما إنَّ اهتمامها بتربية الطفل جعلته ينشأ ذا أخلاقٍ فاضلةٍ وسلوكٍ لطيف وذهنٍ صافٍ.

لمَّا بلغ الصبي السابعة من عمره، أرسله أبواه إلى أحد المكاتب الأهليَّة ليتلقَّى العلوم الرائجة في ذلك العصر، وكانت مُربِّيته الصالحة مطرونة تُحبِّبه في العلم، وتُصلِح له المفاهيم والخرافات اليونانية، وتُظهِر له الغرض الأدبي منها؛ فنشأ مُحبًّا للفضيلة. إلَّا أنَّ والده كان مُتضجِّرًا من هدوء ابنه ورصانته، وكان يوبِّخ زوجته على هذه التربية التي حوَّلت الفتى إلى فتاة! وكان يخشى من أن يشبَّ رجلًا خاملًا لا يتعارك ولا يُخاصم! وكان ينتظر أن يُصلِح هذه التربية متى كبر الولد، لكي يخلق فيه الخشونة والشجاعة والإقدام على الحروب كأجداده الظافرين.

لم تكن إخشسترا راضيةً عن أخلاق زوجها وسُكره، وكانت إذا عاتبته يُهدِّدها بالطلاق. ومرةً غضب حتى رفسها في بطنها، وكانت حاملًا بعد ولادة يوليان، فسقطت مغشيًا عليها ثم أسقطت جنينها ميتًا! ومن ذلك الحين خسرت صحتها التي ظلَّت تتأخر يومًا بعد يوم. ومع كلِّ ذلك، كان يوليان يحترم أباه كما علَّمته مُربِّيته.

في أحد الأيام، سأل الصبي أُمَّه عن أمرٍ حدث له في طريق عودته من المدرسة، وهو أنه وجد بعض التلاميذ يضربون زميلًا لهم بلا رحمة لأنه من أسرةٍ مسيحية. فأشفق عليه، وبمساعدة أحد المارَّة، أنقذه من أيديهم. ثم سألها: "هل أخطأتُ في ذلك ضدَّ ديانتنا، لأنَّ المسيحيين من أعدائنا وهم – كما يُقال – يعبدون رأس الحمار"؟! فقبَّلته أُمُّه وقالت له: "لم تفعل، يا بُنيَّ، إلَّا الحسن. فالمسيحيون هم إخواننا في البشرية، وهم لا يؤذون أحدًا، فلا يجوز الاعتداء عليهم لمجرد كونهم مسيحيين. كما إنني علمتُ من كثيرين أنَّ ما يُشاع عنهم، مثل: عبادة رأس الحمار، وارتكابهم للموبقات في خلواتهم، وتآمرهم على المملكة؛ كل هذه شائعات باطلة يُكذِّبها سلوكهم الهادئ وسعيهم الدائم لعمل الخير. وحسبكَ دليلًا أنهم عند تفشِّي الأوبئة، حينما كان إخواننا (الوثنيون) يهربون ويتركون ذويهم فريسةً للمرض القاتل، كان المسيحيون يجوبون المنازل لتخفيف شقاء المرضى".

ثم حدث أنَّ كنداكيوس اقتاد يوليان ابنه إلى الثكنة العسكرية حيث سلَّمه لأحد القادة أصدقائه، وأَمَر ابنه أن يُطيعه في تلقِّي التدريبات العسكرية مع الكتيبة. وقد تتالت المُحزنات على إخشترا التي تأثَّرت صحتها بشدَّة من إجهاضها ومُعاناتها من سلوك زوجها، وزاد على ذلك بأنه سلب وحيدها منها ولم يُصرِّح له إلَّا بزياراتٍ قليلة لأُمِّه، فتأخرت صحتها وأُصيبت بمرضٍ في قلبها فشل الأطباء في علاجه، وهكذا بدأت تتَّجه حثيثًا نحو الموت.

كيف آمنت والدته قبل وفاتها؟

لم تُفارق مطرونة فراش مولاتها إلَّا لخدمتها، فكانت خير تعزيةٍ لها بأحاديثها المُسلِّية. ومرةً فتحت معها الحديث عن يسوع الناصري، فقالت لها مطرونة: "أنتِ تعلمين، يا سيِّدتي، قِصَر حياتنا على الأرض، مِمَّا يستلزم أن نهتمَّ بالحياة الأخرى".

▪ "نعم، وكثيرًا ما انشغل فكري بكلامكِ السابق معي، كما إنني راقبتُكِ، فلم أجد إلَّا كل أمانةٍ ووداعةٍ وإخلاصٍ وسهركِ الدائم على وحيدي، ومناجاتكِ المؤثِّرة لمَن تعبدينه. **لذلك فقد احترمتُ عقيدتكِ التي أكسبتكِ هذه الصفات الفاضلة"!**

▪ "أشكركِ، يا مولاتي، كما إنني دائمًا مُعجبة بلُطفكِ ورقَّتكِ، إذ لم أسمع منكِ كلمة جارحة".

▪ "ماذا تظنِّين، يا مطرونة، هل يقبل يسوع امرأة تعيسة نظيري، ولا سيَّما أنها لم تذكره إلَّا في أواخر حياتها وفي وقت الشدَّة"؟

▪ "إنَّ يسوع، يا مولاتي، لمحبته للبشر، مات من أجلنا، فكيف يرفضكِ وهو يدعو جميع المُتعبين والثَّقيلي الأحمال ليُريحهم"؟

▪ "وماذا يجب أن أفعله لكي أستحقَّ عطفه وأصير من أتباعه"؟

▪ "إنه لا يُكلِّفكِ، يا سيِّدتي، سوى أن تؤمني بالذي أرسله الآب مُخلِّصًا لنا وتلتمسي منه قبولكِ بين أتباعه. كما ينبغي أن تشعري أنكِ خاطئة وأنَّ الفادي حَمَلَ عنكِ عبء خطاياكِ الثقيل وحرَّركِ من عبوديتها، لتسيري بنور محبته هذه، لأنَّ المسيح: «مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ كَيْ يَعِيشَ الأَحْيَاءُ فِيمَا بَعْدُ لَا لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ» (٢كو ٥: ١٥)".

فتنهَّدت إخشسترا وقالت: "ليتني أستطيع أن أُبرهن ليسوع أنني أُقدِّر جميله هذا للبشر! ولكنني أشعر بأنَّ أيامي أصبحت معدودة على الأرض، وليس لي ما أُقدِّمه ليسوع برهانًا على صدق محبَّتي سوى قلبي الضعيف".

▪ "هذا هو كل ما يرجوه يسوع من مُريديه أن يحبُّوه من كلِّ القلب، لأنه سبق فأحبَّهم (١يو ٤: ١٩)، وشعوركِ الداخلي بمحبته دليلٌ على قبوله إيَّاكِ".

▪ "إنني لستُ يائسةً، ولكنني أشعر بعدم استحقاقي للتلمذة لهذا الفادي الوديع".

▪ "ثقي، إذن، يا مولاتي، أنكِ مقبولة عنده، لأنَّ شعوركِ بعدم استحقاقكِ هو الخطوة الأولى للوصول إلى يسوع. وها أنتِ ترين كيف يقبل تابعو يسوع الموت حُبًّا في المحافظة على وصيته".

▪ "الآن فهمتُ: لماذا يقبل شهداؤكم العذاب والموت بجسارة؟ حقًّا إنَّ ناموس المحبة أعظم ناموس جاء به أعظم حكيم. والآن ماذا تُشيرين عليَّ، يا مطرونة، أن أفعله"؟

▪ "أُشير عليكِ، يا سيِّدتي، أن تستدعي أحد القسوس ليختمكِ بخاتم الإيمان الذي به يُسجَّل اسمكِ بين أتباع يسوع".

▪ "ولكن، كيف يتسنَّى لي ذلك وكنداكيوس شديد التعصُّب ضد المسيحية"؟

▪ "طرأت عليَّ فكرة: إنَّ أحد القسوس يُمارس مهنة الطب، فنُحضره إليكِ بصفته طبيبًا".

▪ "أحسنتِ الفكرة، يا مطرونة، فافعلي ذلك".

فأحضرت مطرونة شيخًا وقورًا يُدعى القس إيباتيوس، الذي حالما فحص المريضة بحضور زوجها، أشار إلى ضرورة ابتعادها عن ضوضاء المدينة. فنقلها زوجها إلى مصيف الأسرة قرب نهر الأورنت، ورجع إلى منزله.

وفي المصيف، أتمَّ إيباتيوس واجباته كقسٍ وطبيبٍ معًا، إذ كان يُخفِّف آلام جسمها ويُنير روحها كموعوظةٍ لفترةٍ قصيرةٍ نظرًا لخطورة مرضها، ثم عمَّدها بتغطيسها ثلاث دفعات على اسم الثالوث القدوس، ومنحها سرَّ التثبيت (الميرون)، ثم طعَّمها في الكَرْمَة الحقيقية بسرِّ الإفخارستيا. وهكذا شعرت إخشسترا ببنوَّتها لله وأنها وارثة مع ابنه لمُلكه السماوي، فكان هذا هو أول يوم عرفَتْ فيه السعادة الحقيقية في حياتها.

ثم قالت إخشسترا لمطرونة: "الآن رأيتُ بعين الإيمان المستقبل المجيد الذي ينتظرني، فلم يبقَ في نفسي ما آسف عليه في هذه الدُّنيا؛ لكنني أطلب منكِ، يا مطرونة، شيئًا واحدًا، وهو أن تكوني أُمًّا ثانيةً ليوليان وتُقرِّبينه للمسيح لكي أُشاهده معي في الملكوت". فدمعت عينا مطرونة لسببين: الفرح لرسوخ سيِّدتها في الإيمان، والحزن على فراقها القريب. وقالت لها: "إنني، يا سيِّدتي، أسيرة فضلكِ وسأُتمِّم أوامركِ بدقَّةٍ وأمانة".

أمَّا يوليان، فقد سُرَّ جدًّا بالحياة العسكرية التي أكسبته بنيةً قويةً وشجاعة قلب، ولما زار والدته حَزِنَ جدًّا لهُزالها، حيث تصوَّر اليوم الذي سيُحرَم فيه من عطفها. وكان يوليان يرتاح لأحاديث القس إيباتيوس الأدبيَّة والطبيَّة، فأحبه جدًا، وطلب من أبيه اعتزال الأعمال العسكرية لتحصيل المعلومات الطبيَّة، فوافق. وهكذا اهتم يوليان بدراسة الطب، ولا سيَّما المعلومات التي ربما تُساعده على إطالة عمر والدته. فحصَّل معلوماتٍ جديرة بالتقدير في مدةٍ قصيرةٍ، ولكنها لم توصِّله إلى غرضه لأنَّ صحة والدته تأخَّرت جدًّا.

ظلَّ مُلازمًا لسرير والدته حتى قالت له مرةً: "ها قد بلغتَ الرابعة عشرة من عمرك، يا بُنيَّ الحبيب، فأخبرني ماذا ستفعل حينما أُفارقك"؟ ثم أشارت بإصبعها إلى السماء، فلم يفهم يوليان، ولكنها قالت له: "لقد أوكلتُ إلى مطرونة أَمْر تدريبك، فاعتمد عليها بعدي لأنها ستكون أمينةً لك كما كانت معي، وأنا أشتهي أن تتلاقى روحانا في العالم الآخر".

ثم جاء القس إيباتيوس، فهاله تأخُّر حالة إخشسترا وقال: "لم يبقَ لديَّ سوى دواء واحد وهو آخر ما عندي، وأخرج من حقيبته صندوقًا فضيًّا ناولها منه القربان المقدَّس.

فانتعشت روحها وقالت ليوليان: "إنني راحلةٌ، يا ولدي، إلى مكانٍ أفضل، فكُن شجاعًا". وقالت لمطرونة: "لا تنسي ما أوصيتُكِ به". ثم خارت قواها، وركع الشيخ إيباتيوس بجوارها يُشجِّعها. ثم رشمت على نفسها إشارة الخلاص، وفاضت روحها إلى مقرِّ الخلود.

كان يوليان أكثرهم حُزنًا على والدته، وحالما أدرك نظام الحياة العائلية، شعر أنَّ والدته كانت حقوقها مهضومةً كزوجة، وأنَّ أباه لم يكن زوجًا ودودًا لها ولا أبًا صالحًا له. كما شعر بقلَّة مُبالاة أبيه به وعدم تأثُّره لوفاة زوجته، فشعر بجفافٍ يُبعِده عن أبيه، ولكنه لم يجد بُدًّا من المحافظة على رضاه لكي يستطيع أن يعيش في بيته. وظلَّت مطرونة مُلازِمةً ليوليان تُخفِّف عنه حزنه بقصصها المُسلّية.

الأسقف القديس سلوانس:

سمع يوليان عن أسقف المسيحيين في مدينة حمص، واسمه سلوانس، وسأل عنه مطرونة، فروت له قصته، وكيف أنَّ شعب حمص رأى فيه الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف بإخلاصه لهم. وكان حبُّه ومعونته للجميع بلا تفرقةٍ بين مسيحي ووثني **سببًا في اكتساب محبة واحترام غير المسيحيين** وعطفهم على المسيحيين في أوقات الاضطهادات. وظلَّ في خدمة هذه المدينة نحو ربع قرن لم يجد فيها عدوًّا سوى بعض المُتعصِّبين للرومانيين.

اِشتاق يوليان إلى رؤية هذا الأسقف، وساعده القس إيباتيوس على مُقابلته. وفي الطريق إليه، تعجَّب يوليان لمَّا رأى الزقاق الضيِّق والمنزل الذي يسكنه زعيم المسيحيين في حمص حقيرًا. فقال له الأب إيباتيوس: "لا تتعجَّب، فإنَّ أصحاب هذه الرُّتب لا يعبأون بزخارف الدُّنيا وبهرجتها، لأنهم ينتظرون المجد الخالد في العالم الآخر". **(يتبع)**